تطبيق النبي ﷺ وصحابته منهج العدل في التعامل مع الآخر:

وسلك الرسول الكريم ﷺ في حياته مسلكًا يفيض بالعطف والشفقة ويعطي درسًا أفاد منه الصحابة والتابعون ومن جاء بعدهم من عامة المسلمين، فتزوج مارية القبطية التي أنجبت ابنه إبراهيم. وعامل الرسول ﷺ يهود المدينة معاملة كريمة فعاهدهم على الدفاع بالنفس والمال وضمن لهم حياة آمنة مطمئنة ولكنه نقدوا عهدهم، وبرهنوا على أنهم لا أمان لهم فأخرجوا وأبعدوا عن دار الإسلام. وبعد أن اكتملت الفتوحات الإسلامية عاش اليهود والنصارى مع المسلمين جنبًا إلى جنب، عيش أبناء الوطن الواحد وأسهموا في بناء الحضارة الإسلامية إسهامًا ملحوظًا ووضعوا لبنات في بنيان الثقافة العربية. ربطوا الفكر الإسلامي بالثقافات الأخرى شرقية كانت أو غربية وكان لهم في حركة الترجمة الإسلامية الكبرى نصيب واضح عرف منهم الطبيب، والكيميائي، والرياضي، والفلكي ومن بينهم من نال حظوة لدى الخلفاء والأمراء. ولا نكاد نعرف في الإسلام اضطهادًا دينيًّا شبيه بتلك الاضطهادات الدينية الكبرى التي سجلها التاريخ القديم والحديث، ولا نزال نشهد بعضًا منها في تاريخنا المعاصر وأخشى ما نخشاه أن تورث الصهيونية العالم الإسلامي هذا المسلك البغيض وأن تغرس فيه ميلًا إلى الانتقام والاضطهاد.[1]

ويقص علينا التاريخ من تسامح الإسلام وسعة روحه، ممثلًا في خلفائه، ما يندهش له الإنسان.

(1) د. إبراهيم مدكور: في الفكر الإسلامي، سمير للطباعة والنشر، ص 173.

فها هو الخليفة المنصور العباسي، مثلًا، يعرض الإسلام على طبيب نصراني عالج نفسه فشفي على يديه فيجيب الطبيب قائلًا: أنا على دين آبائي أموت، وحيث يكون آبائي أحب أن أكون في الجنة أو في جهنم. عند ذلك يبتسم الخليفة ويصرفه موفور العطية.

وهذا المأمون العباسي يعرض الإسلام على زعيم «المانوية»، بعد أن ناظره العلماء وأفحموه، فيرد على المأمون قائلًا: نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة، وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فيرضى المأمون بهذا الجواب ويبعث مع «المانوي» قومًا يحفظونه من العامة.

هذه أمثلة حية نطرحها على شبابنا اليوم ليعرفوا منها الدرس والقدوة والنظر الصحيح إلى حضارتنا العربية الإسلامية.

ولما كان الإسلام يحترم الديانات السابقة، وكان الخلفاء أيضًا بفضل الإسلام يعظمون كل علم وحق وخير ورقي إنساني ويعرفون الفضل لأهله فإن ذلك دعاهم إلى الاستفادة من مواهب الأمم المتحضرة، فمهدوا السبيل إلى تعاون إنساني واسع النطاق، فتضافرت في دولة الإسلام جميع مواهب الأمم العقلية والفنية. ومنذ عهد معاوية بن أبي سفيان نجد الخلفاء يتخذون من علماء أهل الكتاب من يستشيرونه أو يستفيدون منه في تثقيف أبنائهم أو في وظائف ينهضون بعلمهم فيها جيلًا بعد جيل، وقد تظل الأسرة الواحدة (أسرة بختيشوع مثلًا في العصر العباسي) أكثر من قرن تمد الدولة بالأطباء والكتاب والموظفين، كما نجد من أهل الكتاب عمالًا ووزراء في الدولة الإسلامية (سواء في الأندلس الإسلامية أو في مصر) يأدون أعمالهم بإخلاص ويتمتعون هم وأبناء دينهم بالحرية والاكرام، في ضوء قوله تعالى: (لا إكراه في الدين)

وفي ظل حضارة الإسلام نشأ الفكر العلمي والفلسفي وازدهر ازهارًا كبيرًا عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل عند غيرهم من أتباع نحل دينية وفلسفية سابقة كالحرانين، وكان ممثلو ذلك الفكر موضع التقدير والاحترام.

وفي هذه الظروف كلها، وفي جو هذه الحضارة الزاهرة، كيف لا تدخل الأمم في الإسلام وتشارك في حضارته، وكيف لا يتسابقون بل يتنافسون في ذلك؟[1]

أظننا بعد هذا العرض لسنا في حاجة إلى التأكد على أن الإسلام يحترم الآخر ويحافظ على حقوقه من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والتاريخ الحضاري.. ولعل هذا يمهد للحديث عن موقف مفكري الغرب من الإسلام وهذا ما نتحدث عنه فنموذج واحد من أصحاب الرأي والفكر حتى تتضح الصورة بجلاء حول قضية منهج تجديد الخطاب الديني بصورة متوازنة وعادلة.

(1) د. محمد عبد الهادي أبو ريدة: الحضارة الإسلامية أسسها الدينية ومميزاتها ومكانتها بين الحضارات العالمية، مجلة المسلم المعاصر، عدد24، ص 34.